بين الحقائق .. والأوهام (*)

يدور الزمن، وتطرح الحوادث نفسها على طريق الأمة هنا وهناك بأسباب منها القريب ومنها البعيد، وتنشأ عن ذلك متغيرات قد تكون في صالح الأمة وقد لا تكون.

والمهم في الموضوع: أنه تبدو من خلال هذا كله ـ ما ظهر منه وما خفي ـ حقائق يجدر أن نتعامل معها بنظرات صائبة ووعي عميق، فلا يضيع الناس في متاهات التخبط والتمزق، ولا تقلب المفاهيم، كما لا تفوَّت الفرص التي يفترض أن تغتنم، وتوظف على طريق المواجهة الذي طلق المهادنة طلاقاً لا رجعة فيه.

إن التعامل مع الحقائق بشجاعة ووضوح، هو الكفيل ـ بإذن الله ـ أن يدع الأمة تتبين أمرها فيما هو واجب على ساحة التصور والإعداد وتقويم القضايا بكلياتها وجزئياتها، وما هو غير واجب.. وفيما يبدو لزاماً أن تكون معه ويكون معها، تصحبه وهي تعمل على رد الأمور إلى نصابها، واستنقاذ وجودها الذاتي على أرضها من بين براثن الأعداء.. وعلى العكس فيما يبدو لزاماً أن تجتثه من حياة أبنائها، وأن تنأى عنه، وتقطع ما بينها وبينه من أسباب صنعتها ظروف منكوسة، وملابسات شُبِّهَ لبعض الغافلين أنها تنتسب إلى الخير.

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الثالث، السنة الحادية والعشرون، جمادى الأولى ١٤٠٠هـ، نيسان ١٩٨٠م.

وبذلك تكون هذه الأمة على المحجة البيضاء، فيما يلزمها من إعداد القوة ـ كما أمر الله ـ وحشد الطاقات في ظل راية الإسلام، من أجل الوصول إلى الهدف في ضوء التعامل مع تلك الحقائق.

يرافق ذلك تدرج على سلم الأولويات يحكم صاحب العقيدة، وموضوعية في تصنيف الاهتمامات يحسن بالمسلم أن يكون وقافاً عندها.. علماً بأن أحداً لا يستطيع إيقاف عجلة الزمن، وطلوع الشمس من مغربها علامة كبرى من علامات الساعة التي تؤذن بزوال هذا الدنيا.

أما الالتفات عن الحقيقة ـ أو الحقائق ـ طلباً للعافية من تكاليفها: أو تغاضياً نفسياً عما هو عكس المراد، فأمر يجر المتاعب، ويوقع في المصاعب، وكثيراً ما يكون سلاحاً ماضياً يوجه إلى الصدور؛ ذلك لأن الأمة في مثل هذه الحال، تكون هنا.. وما تقتضيه مواجهة التحديات في أعبائها ومسؤولياتها هناك!! وهل بعد هذا الضياع من ضياع؟!

أقول هذا، لأنه كثيراً ما تطرح الرغبات العميقة في داخل النفس الأمارة بالسوء أموراً سلبية، وأحكاماً تتثاءب، ليس لها وجود حقيقي على الساحة، ولكنها انعكاس تلك الرغبات، فإذا سار التعامل مع الوقائع من هذا المنطلق: كانت الطامة.

يستوي في ذلك ما يطرحه التفاؤل، وما يطرحه التشاؤم؛ لأن كل ذلك مصروف عن أن يكون من الحقيقة في شيء.

وأدع للقارئ الكريم أن يختار عينات من واقع المسلمين في ديارهم، أو حيث يكونون أقلية في بلاد الكفر، بدءاً من أوائل القرن الرابع عشر للهجرة وانتهاءً بما هو جار على الساحة هنا وهناك اليوم.

ولسوف يرى أن عنصر المخالفة بين الحدث على الصعيد الدولي أو غيره، وبين ما كان واجباً أن يصنع، إنما جاء في أكثر الأحيان من سوء التعامل مع الحقائق، أو استبدال أوهام مصنوعة بها.

وتصور معي ما يؤول إليه الأمر، حين تكون قضية مصيرية ما، تتعلق بكيان الأمة عموماً، أو بجانب من جوانب وجودها الذاتي في الفكر والأرض مثلاً، ولا يُتعامل من أجلها مع الحقائق كما هي.. الحقائق التي لا تنسى معها المواقف دولية كانت أو غير دوليةً، الحقائق التي لا تنسى معها العقائد وما لها من انعكاسات، الحقائق التي تعطي أن السلوك لا يتجزأ، وأن مواجهة الوقائع بلا ذاكرة: خسران مبين.

ولقد يكون مفزعاً حقاً: أن يحل محل الحقائق أوهام يطرحها حب العافية، أو نسيان أن الله ينصر من ينصره ـ ومن أصدق من الله قيلاً ـ أو بعض الرغبات والرهبات المختزنة في اللاشعور، فيجري التعامل مع تلك الأوهام.. أو يحصل التعامل مع واحدة من الحقائق، ولكن دون عين مبصرة، أو بصيرة مستنيرة بنور الله، أو دون رغبة صادقة في العمل، وشجاعة في تحمل المسؤولية، وما تفرض من مستلزمات وتكاليف.

إن كثيراً من النتائج التي أصبحت ركاماً على طريق الأمة في عالم الثقافة والفكر والتشريع، وأصول البنية الحضارية على وجه العموم، يكمن عدد

من مقدماتها في هذا الذي نشير إليه؛ لأن الأمة تبدلت التبعية بالأصالة ومقومات الوجود الذاتي، ورضيت بالقعود والاستخذاء.. وأين هذا الخزي من البذل والتضحية والجهاد في سبيل الله.. وهل يستوي المتثاقلون إلى الأرض، والذين ينفرون خفافاً وثقالاً ويجاهدون في كل ميدان؟!

من أجل ذلك ترى على صعيد الواقع ـ وإن كان الضياء يزحف والحمد لله يوماً بعد يوم ـ أن الرواد في عدد من النماذج والصور، بدلاً من أن يبنوا لبنة: تتقضى أوقاتهم في ترميم ما يحصل من انهدام، ودرء ما يمكن درؤه من مفاسد جلبتها تلك المقدمات.

وهكذا يبدو في ضوء هذه المقولة التي لها من الواقع ما يشهد لها بعمق وأسى، أن على الأمة ممثلة في الرواد من أبنائها، والمخلصين المؤتمنين على رسالتها.. أن تواجه ما يبرز على الساحة في العالم الإسلامي، أو في أية بقعة من العالم يوجد فيها مسلمون مستضعفون.. أن تواجه ذلك بشجاعة المؤمن المجاهد، وأن تنظر إليه بعين واعية مدركة للواقع وأبعاده في ظل المنهج الرباني.. وذلك من أجل أن يكون تعاملها مع الحقائق؛ حيث تتضح الرؤية وتتبين المسالك، لا مع الأوهام، حيث تتشعب السبل ويؤول الأمر إلى الانتكاس والاستخذاء.

نهم، ومن أجل أن تحسن التعامل مع كل حقيقة نطق بها القرآن أو السنة أو استعلن بها الواقع من خلال التجربة والاستقصاء. وإلا ضاعت الفرصة، وآلت الواقعة الجارحة بل المدمرة أحياناً، لتكون مقدمة بالغة السوء لواقعة أسوأ منها وهكذا دواليك.. ظلمات بعضها فوق بعض.. والله المستعان.

وإذا وضحت السبيل، وسلمت المنطلقات.. فلن يكون هنالك تهوين من شأن ما يجري على أرض كذا، أو ما أصيب ويصاب به جزء من عالمنا الكبير في بقعة كذا من أرض الإسلام، فيضام المسلمون، وإخوانهم عن ذلك غافلون.. أجل لن يكون ذلك بعون الله تعالى، ولكن تقوّم الأمور بحجمها وأبعادها، ونسبتها من الوجود الحقيقي للأمة في ظل إخوة الإسلام التي عقدها رب العزة جل جلاله من فوق سبع سماوات.. كما تقوَّم بعد ذلك بما تأخذه على ساحة الواقع كما هو في حدوده وأبعاده.

وعند ذلك، لن يكون هنالك بالمقابل إغراق في التشاؤم يوحي باستحالة القدرة على مواجهة هذا اللون من التحديات.. والجهاد ماض إلى يوم القيامة.

وهكذا بدلاً من الفرحة العابثة، أو الحزن القاتل: يملأ الوقت بالإعداد والاستعداد، وتلكم هي أولى مهمات المؤمن بوصفه مؤمناً، أعطى ربه الموثق من نفسه على الإيمان والعمل والجهاد ساعة استضاء قلبه لكلمة التوحيد «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

هذا. وما كان لي أن أقول الذي كنت بسبيله، لولا أن كل الآيات والأحاديث التي كانت ترسم معالم الطريق للأمة في العهدين المكي والمدني للرسالة الخاتمة، توضح بما لا يدع ريبة لمستريب، أن على المسلم أن يتعرف على الحقيقة ويتعامل معها على هدي إيمانه بعيداً عن البله والغفلة، أو الاغترار بما قد يطرح من زخارف وتمويهات.

كل ذلك من أجل أن يكون على الجادة فيما يريد أو لا يريد، ثباتاً على العقيدة، وانطلاقاً واعياً لا يحيد عن سبيلها ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ** ﴾ ووضوحاً في الرؤية، وممارسة جادة لشؤون الرسالة على الصعيد الحضاري ومواجهة التحديات.

وفي خاتمة المطاف: إن اليقظة تطل تباشيرها من خلال الصعوبات والحروب المعلنة وغير المعلنة على هذه الأمة، في فكرها وأرضها بل ووجودها..

وصلى الله وسلم على معلم الناس الخير، حيث يقول فيما صح عنه من رواية البخاري: [**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون**].

عودة إلى رحاب البيت (*)

لقد شاء الله ـ بعظيم حكمته ـ أن تكون أحكامه التي شرع لعباده: طرائق للتقوى والفلاح، وأن يكون هؤلاء العباد بما ابتعث فيهم من رسل، وما أنزل من كتب، على بينة من أمرهم في هذه الدار التي هي مزرعة الآخرة، وميدان التسابق؛ فكلٌ يعمل على شاكلته، والفائزون الفائزون هم أولئك الذين يدركون حكمة الحكيم فيما خلقهم لأجله، وهو سبحانه لا يظلم مثقال ذرة في الأرض والسماء ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا** ﴾.

وكأن الله ـ جلَّت حكمته ـ قد جعل فريضة الحج ـ بما تضم في ثناياها من شروط وأركان وواجبات ومندوبات ـ عنواناً على أمانة هذه الأمة فيما ورثت من ملَّة التوحيد، ملَّة إبراهيم ـ عليه السلام ـ، وتعظيم الله العظيم في بيته الحرام الذي جعله مثابة للناس وأمناً، ومائدة من موائد الخير الإلهي، حيث يتجلى المولى سبحانه ـ وهو غافر الذنب وقابل التوب ـ على حجاج بيته برحماته، فيستجيب دعاءهم، ويغفر خطاياهم، ويعطيهم عطاء القدرة والفضل والإحسان ﴿ **جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾.

(*) مجلة حضارة الإسلام: الأعداد الثامن والتاسع والعاشر، السنة الحادية والعشرون، شوال وذوالقعدة وذو الحجة ١٤٠٠هـ، أيلول وتشرين الأول والثاني ١٩٨٠م.

وإنك تجد في كل شعيرة من شعائر الحج وفي كل منسك من مناسكه، حلقة من حلقات البر، كأنها روضة من رياض الجنة يرتع فيها المؤمن، فلا يكاد يفرغ من واحدة هنا حتى يسعد بتالية هناك.. وهكذا دواليك؛ وعندما تقول: عطاء الكريم المنان.. فلا بدع ولا غرابة، وعندما تقول: إحسان ذي الجلال والإكرام: فحدّث ولا حرج، فالكل في رحاب بيته، ومن دخل بيته كان آمناً.

ولئن كان الحج فرصة نورانية يبث فيها المؤمن أشواقه وتطلعات قلبه التي يمدّها حب صادق لمولاه، بما يكون من دعاء خاشع مبلل بالندى، ودموع حرَّى يسكبها أهل المحبة الذين تذوب قلوبهم؛ شوقاً إلى البيت حباً برب البيت.. إنَّ في كل لحظة من لحظات تلك الحقبة الزمنية المباركة، عطاءً إلهياً يحسّه ويتذوقه أولئك الذين تفتحت قلوبهم للنفحات، وانجلى عن بصائرهم ران الغفلة، وتسربلوا ثوب العبودية الخالصة لمولاهم في حقيقة الضرع والافتقار، كما تجردوا عن المخيط، وتوشحوا ملابس الإحرام التي جاءت بها شرعة المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وتنبيهاً على المعاني الرائعة، التي تأخذ بالحاج من نفسه، وعاداته، ومألوفاته، وما كان من شهوات ومغريات وتطلعات تأخذه كليةً إلى مولاه، تستنقذه من الوهدة، تحرك مشاعره نحو ربه الكريم خالق الأرض والسماوات: جاءت الشرعة بذلك الشعار السماوي العلوي: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك

لك». وصحت النصوص بالحث عليه والدعوة إلى الإكثار منه مع رفع الصوت بهذا الإهلال، والإعلان البالغ الفردي والجماعي، وحملت إلى المسلمين كثيراً من البشائر على ذلك. فعن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله سُئل: أي الأعمال أفضل؟ قال: [**العجّ والثَّجُّ**]. وعن سهل ابن سعد ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: [**ما من مُلبٍّ يُلبّي إلا لبى ما عن يمينه وشماله من حجر، أو شجر، أو مدر، حتى تنقطع الأرض من ههنا عن يمينه وشماله**]. وفي الحديث الصحيح عن جابر ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: [**ما من محرم يضحي لله يومه يلبي حتى تغيب الشمس، إلا غابت بذنوبه فعاد كما ولدته أمه**].

كل هذا، لما أن هذه التلبية التي تنطق بالاستجابة الخالصة المضاعفة معلَنة واضحة لله عز وجل رب هذا البيت الذي يقصده المسلمون من كل فج عميق حجاجاً، ومعتمرين: من أعظم دواعي التأثير على النفس في تنبيهها إلى مقتضيات الإيمان، وإيقاظها لمقاصد الحج التي من أجلها ـ والله أعلم ـ جعله الله ركناً من أركان الإسلام، وتزويدها بزاد جديد من حرارة الإيمان، وعزيمة التخلص من الشوائب، والقدرة على تجاوز المعوقات، التي تحول بين المؤمن، وبين أن يكون حيث أراد الله له أن يكون، عقيدة وعملاً وأخذاً بكل الأسباب التي فيها يقظة الفرد، ومنعة الأمة وحصن الإسلام. ولك أن تقول بدموعك، أو تكتب بحرقك وأشواقك وحنانك: إن المفروض بالمسلم عندما يهل بقوله: «لبيك اللهم لبيك» أن يصبح كأنه إنسان آخر، فهو

يخاطب سمعياً بصيراً ليس بينه وبينه حجاب، يخاطبه خاشعاً لجلاله، خاضعاً لسلطانه، معترفاً بتقصيره وزلاته، طامعاً بغفر الزلات، وغسل الخطيئات، فتثور الأشواق، ويغلي فيها الدم والعروق، ويفيض الحنان، ويتحول الكلام إلى دموع، ويزيد ما في القلب من هيمان، حتى كان هاتفاً من الملأ الأعلى يرتل في أعماقه ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ يرتلها ويزيده من جمالها وروعتها وعذوبتها حتى يعيش في ظلها، بل معها، وذلك طبه ودواؤه، ونواله إلى يوم يبعثون. وهذا الذي تراه أو تقرؤه في أعين أولئك الذين سعدوا بهذا الضياء الخاشع، يجعل من الحاج إنساناً قادراً على التلقي في كل حركاته، وتنقلاته وتصرفاته، لما أنه مظلل بذاك الجو الروحاني الذي ملك عليه منافذ الرؤية والحس وأحاط به، حتى غدا وهو من بشائر الجنة لأهل هذه الأرض.

وإذا كانت التلبية تبدو ـ وفي بعض مضمونها هذا الخير الذي نشير إليه بالخاطف من الحديث ـ فإن كل منسك من مناسك الحج ـ كما أسلفت ـ روضة من رياض الجنة، وطوبى لمن كان أهلاً لأن يرتع في رياض الجنة، طوبى له وحسن مآب، ويا حسرة على أولئك الذين يخسرون ما في جيوبهم، ويؤوبون من تلك الديار وقد خسروا مع المال حسن المثوبة، فكأنهم لم يدروا لماذا حطوا ولماذا ارتحلوا. ونحن بهذا لا نتألى على الله تعالى فهو الرحيم الرحمن، وهو المعطي الغني القادر الذي لا تنفد خزائنه من العطاء، ولكن الذي تعطيه نصوص الشريعة أن رحمات الله لابد للمرء من أن يتعرض لها

ويفتح قلبه لتنزلاتها، ويحمل نفسه على الصعود والمرتقى، حيث المغفرة والرحمة والعطاء.

ولعل في تعدد تلك المناسبات والشعائر، من طواف حول البيت، وسعي بين الصفا والمروة، ووقوف بعرفة، ومبيت بمزدلفة، ورمي للجمار، وتلبية، ونحر، وشد الرحال إلى مسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - والصلاة فيه وزيارته - صلوات الله عليه وسلامه - وعلى أصحابه، والصلاة والدعاء في مواطن إجابة الدعاء، وسفح العبرات حيث تسفح، والتذلل والخضوع حيث يطلبان، والصبر على تغيير العادات والمألوفات، والتزام التجرد عن كل مظهر يتنافى مع المساواة بين الخلق، والعبودية لخالقهم جميعاً سبحانه.. لعل في ذلك كله - وغيره كثير - باباً من أبواب التيسير على المسلم كي يلج - في جو من حرمة الزمان والمكان - إلى ساحة المبرات والرحمات، هذا المنسك هنا، وذاك المنسك هناك، خصوصاً إذا حرص على أن يكون الأداء على الطريقة التي أداها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم حج حجة الوداع وقال - صلوات الله وسلامه عليه - وهو يقوم بالمناسك رسولاً مبيناً، وإماماً معلماً: [**لتأخذوا عني مناسككم**].

وإذا كان الأمر كذلك، فما على المسلم إلا أن يصدق لله نيته، ويخلص إليه قلبه ووجهته، كيما يكتب له أن يكون في عداد أولئك الذين يحفهم الرضا، وتغمرهم محبة الله، فكلما قام بعمل من أعمال هذا الركن العظيم، خطا خطوة مباركة إلى ذلك المقصد المبارك الميمون، وهو في خير،

بدءاً من عزمه على المسير، إلى أن يعود إلى بيته مقبول العمل مغفور الذنوب، عازماً على أداء ما عليه من حقوق العباد.

ففي الحديث الذي أخرجه الطبراني والبزار من رواية ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن مجيء الرجلين الثقفي والأنصاري إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو في مسجد منى، يقول رسول الله مجيباً الأنصاري عما أراد سؤاله قبل أن يسأل: [**فإنك إذا خرجت من بيتك تؤم البيت الحرام لا تضع ناقتك خفاً ولا ترفعه، إلا كتب الله لك به حسنة، ومحا عنك خطيئة، وأما ركعتاك بعد الطواف كعتق رقبة من بني إسماعيل عليه السلام، وأما طوافك بين الصفا والمروة كعتق سبعين رقبة، وأما وقوفك عشية عرفة فإن الله يهبط إلى سماء الدنيا فيباهي بكم الملائكة، يقول: عبادي جاؤوني شعثاً من كل فج عميق يرجون رحمتي، فلو كانت ذنوبهم كعدد الرمل ـ أو كقطر المطر أو كزبد البحر ـ لغفرتها، أفيضوا عبادي مغفوراً لكم، ولمن شفعتم له، وأما رميك الجمار فلك بكل حصاة رميتها تكفير كبيرة من الموبقات، وأما نحرك: فمذخور لك عند ربك، وأما حلاقتك رأسك: فلك بكل شعرة حلقتها حسنة، ويمحى عنك بها خطيئة، وأما طوافك بالبيت بعد ذلك: فإنك تطوف ولا ذنب لك، يأتي ملك بضع يديه بين كتفيك فيقول: اعمل فيما تستقبل، فقد غفر لك ما مضى**]. وفي شأن استلام الركنين الحجر الأسود والركن اليماني وتكفير الخطايا بذلك: نقرأ ما أخرج الإمام أحمد والترمذي ـ واللفظ لأحمد ـ عن عبدالله بن عبيد بن عمير ـ رضي الله عنه ـ: أنه سمع أباه يقول لابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: مالي أراك تستلم

إلا هذين الركنين: الحجر الأسود والركن اليماني: فقال ابن عمر: إن أفعل فقد سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: [**إن استلامهما يحط الخطايا**].

وضمن عدد من الأحاديث في فضل ماء زمزم نقع على ما رواه أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: [**ماء زمزم طعام طعم، وشفاء سُقم**].

هذا قليل من كثير من الآثار الصحيحة الواردة في الباب، ومبتغانا من هذا الذي نثبته هنا، أن يكون لنا ـ نحن المسلمين ـ من الإدراك لعظيم منَّة الله فيما أوجب، ما يجعلنا على صعيد الفرد والأمة، على تفاعل صادق مع الذي شرع الله من أحكام، كيما يكون في ذلك العلاج الناجع للأسباب التي أودت بالأمة إلى ما هي فيه، حتى سلط عليها أذل أهل الأرض. فالفرد ـ في تفاعله واستجابته الصادقة للشرعة والأحكام ـ يخرج من ابتلاء الالتزام والتطبيق وهو أكثر صفاء، وأوفر قابلية لما فيه سعادة نفسه، وتفتح قلبه، لما أن أشواقه وتطلعاته قد صادفت موطنها الأمين، ولما أن كأس حبه وحنانه قد فاض على الأعتاب في هاتيك الديار دموعاً لها ما لها في ميزان القبول.

فعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: استقبل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحجر، ثم وضع شفتيه عليه يبكي طويلاً، ثم التفت فإذا هو بعمر ابن الخطاب يبكي، فقال: [**يا عمر، ههنا تسكب العبرات**].

والفرد الذي يصقل هذا الصقال في ظل الأوامر والنواهي، يغدو وهو أقدر بلا ريب، على أخذ مكانه من الصف في خدمة أمته، وسلوك ما به يكون لبنة صالحة في بناء الأمة المسلمة التي تبرهن في فكرها وعملها يوماً بعد يوم، على أنها جديرة بالخطاب القرآني قبل أربعمئة وألف عام ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾.

أما على صعيد الأمة: فلا والله لن يردَّ الله حجاج بيته خائبين إذا دعوه، ولن يعرض عنهم إذا أقبلوا عليه، ولا والله لن يطول الأمد حتى يمكن لهم الدين، وليبدلنهم بعد الخوف أمناً، وبعد ضعفهم قوة وسلطاناً. ولكن الأمر يكمن في أن تكون الأكف الضارعة صورة لقلوب أيقنت بالإجابة، وشريكة أيد أسهمت بالعمل والأخذ بالأسباب. إن الذي ينقص المسلمين اليوم ـ في كثير من ظواهر المرض في جسم العالم الإسلامي ـ أن تفيض القلوب بتلك الحرقة الصادقة مما حل ويحل بالأمة من كوارث تذيب الحجر الأصم، أن تكون العيون مؤرقة تستعصي على الرقاد مما يرى المسلم ويسمع، ويقرع قلبه ولبه صباح مساء، أن تتجافى الجنوب عن المضاجع، وتهزأ النفوس بالراحة، وتستعلي على طلب العافية، لوناً من ألوان تثبيت الأقدام على أول الطريق، دون موارية أو محاورة أو مداورة.

وما كان للمسلمين أن يغفلوا، أو يتغافلوا عن الحقيقة التي يجب أن تأخذ حيزها الطبيعي من تصورهم وتفكيرهم، ألا وهي عدم الانفصال أو التجزئة في نظرة المسلم إلى كيان الأمة في الفكر والزمان والمكان.

إن وفود بيت الله، في دعائهم وتضرعهم، وخشوعهم ودموعهم، يمثلون أصدق صورة لإذابة الفوارق أمام العقيدة، فالله تبارك وتعالى عندما يستجيب لا ينظر إلى صورهم وألوانهم، مادامت لغة الإيمان لغتهم، ومادامت القلوب عامرة بالسكينة والنور، مشرقة بالطمأنينة لصدق وعده سبحانه في إجابة دعوة المضطر وإغاثة الملهوف، ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ**﴾.

وإذا كانت كارثة الأقصى وما حوله، تنزل بكلكلها الرهيب على صدر هذه الأمة: فإن رب البيت الحرام الذي تؤمه اليوم مئات الألوف، ملبية داعية مكبرة، هو رب المسجد الأقصى، فليكن هذا في ضمير المسلم عندما يرفع كفيه بالدعاء، وإن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عندما حدد أفضلية الصلاة في بيوت الله، جعل الأقصى ثالث ثلاثة بعد المسجد الحرام ومسجده. وهذا منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ دليل ما يجب من التكامل في نظرة المسلم إلى المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال، على ما لكل منها من الفضل الذي نؤمن به في حدود توقيف الشارع. هذا إلى أن النظرة إلى البيت العتيق لابد أن تأخذ المسلم بقوة إلى تذكر الأقصى مسرى رسوله الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعراجه.

وحرام أن تكون العبادة في نظر المسلم رسوماً وأشكالاً مقطوعة النسب عن الحياة التي أرادها الله بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾. إن على المسلم التزام كل ما أمر به الشارع، مع تصور

سلامة التفاعل بين العبادة وما يمكن أن تؤديه في حياة الفرد والأمة، بما يكون من انعكاس آثارها العملية الطيبة على حياة الأمة وواقعها، كيما تكون هذه الأمة في حركة دائبة صاعدة، تنأى عن الجمود القاتل، والوقوف الذي لا يعني إلا الموت، ولعل هذا بعض أسرار قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

لقد كان مبكراً تنبه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى بلاد الشام وما فيها وما يمكن أن تؤديه رسالة الإسلام على أرضها، حين حمل عبء المسير بجيشه اللجب من الحجاز إلى تبوك، وخبر الرحلة القاسية العنيدة مأثور ومعروف. فإذا أضفت هذا إلى تجهيزه لجيش أسامة وعقد الراية له بيده، وما كان من قبل، من معجزة الإسراء والمعراج في ربط بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى، أدركت كيف يجب أن يكون دعاء المسلم عندما يدعو رب البيت العتيق والأقصى، وأن الدعاء لابد أن يرافقه العمل، وكيف يفترض أن يكون شعوره عندما يسلم على المصطفى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ الذي أدى الرسالة، وبلَّغ الأمانة، ونصح للأمة، وكان من أمره ما كان مع يهود، ثم ما كان من يقظته النبوية بالنسبة إلى ديار الشام، بجانب إكرامه الله له بمعجزة الإسراء والمعراج، وعندما يسلم المسلم على الصديق أبي بكر لابد أن يذكر صنيعه بجيش أسامة، وحرصه على أن لا يحل راية عقدها رسول الله ـ مع ما كان من ليل الردة البهيم، وما تطلبت من معارك ورجال ـ حتى كانت واقعة اليرموك التي غادر الحياة رضوان الله عليه ولما تنته بعد.

وعندما يسلم على الفاروق عمر بن الخطاب، جدير به أن يذكر ما كان من أرقه ـ رضوان الله عليه ـ ومعاناته حتى فتح الله على المسلمين ودخلوا الشام، وليذكر أن الأرض التي صلى عليها هذا الخليفة أمام كنيسة القيامة حين لم يرض أن يعمل عملاً يمكن أن يؤول إلى ضياع معبد النصارى من أيديهم، ليذكر أن المسجد الأقصى، وأن هذه الأرض يسرح ويمرح في أرجائها صبية يهود.

إن أمراً على غاية الأهمية في إيمان المؤمن وصادق نسبته إلى هذه الأمة، أن يكون له مع كل دعوة ذكرى، ومع كل تلبية تجسيد للحقيقة الماثلة التي تقض بمرارتها مضاجع الرجال، ومع كل دمعة لهفة على واقع المسلمين، وعزمة إيمانية جديدة على العمل الصادق الصابر المثمر في سبيل الله عز وجل.

وإذا كان هذا على صعيد الفرد، فهو على صعيد الأمة أكثر أهمية وأشد ضرورة. ألا إن الله سائل هؤلاء المؤمنين الآمّين بيته، الخاشعين في رحابه، داعين ملبين، عن عمل في سبيله يحرر الأرض ويطرد الغاصبين، ولن يكون ذلك إلا بالحزم الحازم والكلمة الواحدة، والصدق الذي لا يشوبه خداع، والمواجهة الواعية للحقائق بكل ما يمكن أن يكون ثمن هذه المواجهة. وإن عقد الخناصر في رحاب الطهر والقداسة حيث البيت الذي جعله الله مثابة للناس وأمناً، وحيث مثوى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وأصحابه البررة ـ رضوان الله عليهم ـ الذين أضاؤوا للإنسانية

طريقها بدمائهم وتضحياتهم . . إن عقد الخناصر هذا جدير أن يعمل عمله، وأن يؤتي ثماره إذا صدقت النيَّات، واقتحمت عقبة الأغراض القريبة الفانية التي لا تزن عند الله مثقال ذرة، خصوصاً إذا ذكرنا، أن نكبتنا ـ في تقويم صادق ينبعث من العقيدة والواقع ـ هي نكبة الأمة جمعاء على تنائي الديار واختلاف الألسنة والألوان.

ألا إن النسب صادق كريم بين كل مسلم على وجه هذه المعمورة، وبين تلك الرمال وذياك الثرى على أرض مقدساتنا !!

إن النسب الكريم إلى الرمال والثرى: صورة عن النسب إلى المبادئ التي أثبتت وجودها على هذه الأرض التي انبثق منها نور الهداية، واندفعت من أرجائها مواكب الدعوة، وانطلقت موجات العلم والمعرفة والحق. وما كان لمؤمن ولا مؤمنة أدركوا ذلك تمام الإدراك، أن يكون لهم الخيرة في الموقف الذي تمليه العقيدة وأحكام الإسلام.

ولن يضير هذه الأمة قوة في الدنيا، إذا هي استأنفت الطريق، وراجعت صيدها بأمانة وثقة، واستمسكت بالحق الذي نزل به الكتاب، وأوضحه بياناً وتطبيقاً: نبيها محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

ألا إن على المسلمين ـ من كتب لهم الحج، ومن لم يقسم لهم ذلك ـ أن يتخذوا من هذا الموسم المبارك ـ فيما يحمل من قدسية الزمان والمكان، وفيما يمثل من فرصة سنوية للمسلمين يتميز بها المقصر من المدرك، ويتسم الجميع بمظهر العبودية والمغفرة، وفيما يفيض به من شعائر كلها بر وخير أن يتخذوا

منه نقطة بدء سليمة لاتجاه إيماني سليم، أن يحزموا أمرهم على العمل بما تقتضيه المناسك والتلبية، في فريضة هي خامسُ خمسة في أركان الإسلام، وأن يتجهوا إلى الله صادقين مبصرين، ودليلُ صدقهم استقامةٌ على الطريق وأخذ بالأسباب في إعداد صادق بعيد عن الشوائب.

وإن الله الذي جعل بيته مثابة للناس وأمناً، هو القادر أن يهب هذه الأمة اليوم، ما وهب أسلافها بالأمس، يوم أنزل فيهم آياته ترسم للطريق البعيدة معالمها، وتضع لها منارها الهادي فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

الداعية المربي ﷺ(*)

على بركة الله ورجاء المزيد من توفيقه تفتتح المجلة عامها الجديد - مع مطلع القرن الخامس عشر الهجري - بشهر ربيع الأول الشهر الذي كان من خصائصه التي ميزه الله بها أن جعله شهر مولد رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه -، وهذا يحملنا - ونحن في ظلال رحلة أمتنا عبر تاريخ خلّف أربعه عشر قرناً - أن نستذكر المهمة الأولى التي كان يضطلع بها سيد العالمين في أداء رسالته للناس عندما كان يقول لهم: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا».

إنها مهمة الدعوة.. الدعوة إلى الله على بصيرة، والدعوة إلى الله على نور كتابه الذي أنزل عليه شفاء ورحمة للمؤمنين.. فكانت هذه الدعوة اليد الحانية التي حولت الإنسانية من حال إلى حال، وسلكت بالعرب مسلك القيادة في العالمين على هدى منهج رباني لم يغادر صغيرة ولا كبيرة من لمحات الفضيلة، وكل ما فيه تحقيق إنسانية الإنسان وإسعاده في الدنيا والآخرة إلا ازدان بها واحتواها. وهي دعوة الإسلام كما هو في منابعه ومصادره، كما هو في صفائه وشمائله، كما هو في حقيقته، كما أراد الله وأثبت واقع التطبيق.

ولسنا بسبيل أن يأخذنا السرد التاريخي لأمور تتعلق بأمر هذه الدعوة من أجل التاريخ وكفى، ولكن بسبيل أن نستذكر صنيع الداعية الأول - صلوات الله وسلامه عليه -. ذلك الصنيع الذي لا تزيده الأيام إلا جدةً وصفاءً، ولا

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الأول، السنة الثانية والعشرون، ربيع الأول ١٤٠٠هـ، كانون الثاني ١٩٨١م.

تمر بالأمة نعمة أو نقمة، إلا بدت الحاجة ملحة أكثر وأكثر إلى حسن تمثله وترسم خطاه دون تحرف أو ازورار.

إن نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو الداعي إلى الله بإذنه على بصيرة ـ كان على يقين أشدَّ رسوخاً من الجبال الرواسي بما يدعو إليه، فهو يعرف ما يريد ومؤمن بما يريد، والغاية من وراء الدعوة ماثلة أمام ناظريه منذ اللحظة الأولى بعد أن أوحي إليه، فخطا الخطوة الأولى على تلك الطريق.

وهو ـ فداه أبي وأمي ـ عالم كل العلم ـ بما أشرق قلبه من ضياء الوحي، وبما أهَّله الله لحمل الرسالة ـ بطبيعة الأرض التي يتحرك عليها وحنايا النفوس التي يدعوها إلى الله، فكان واقعياً كل الواقعية، في استجلاء مكامن الفطرة، ومخاطبة العقول والقلوب، والاستعانة بثمرات تجارب الماضين، والإفادة من كل الدروس والعبر التي يمكن أن تؤثر في أولئك الذين يريد حملهم على الجادة، وإنقاذهم من الوهدة، وإخراجهم من الظلمات إلى النور. ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.

ولم يقتصر ذلك كله على الجزيرة العربية بحدودها، ولكن أخذ التبليغ طابع العالمية بما أرسل من رسل حملوا كتبه إلى هنا وهناك من أرجاء المعمورة عملاً بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾. ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٤٥﴾ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً﴾.

ولم تكن المهمة سهلة ميسورة بالقدر الذي يتصوره بعضهم؛ فإزالة الركام عن

العقول والقلوب، وتخطي المورثات الآخذة بخناق الناس يومئذ من أجل بناء الإنسان من جديد: هو المهمة العسيرة. إن أي بناء مادي في المجتمع قد يكون أقل صعوبة من بناء الإنسان، خصوصاً عندما يكون هناك ستار من المتناقضات، وحجب هي نسيج الخرافة والتقليد الأعمى، وأوهام العزة والفخار.

وبقدر ما نكون على تصور صحيح لهذه النقطة: ندرك أي منجزات حققها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عندما بنى القاعدة الصلبة التي أخذت على عاتقها حمل الراية الإنسانية لكل بني الإنسان، حين أعلنت كلمة التوحيد، وبذلت في سبيلها كل شيء، وواجهت الحياة بشرعة العليم الخبير، ووضعت بمعطيات العقول والقلوب والتضحيات أسس الحضارة الإسلامية الماجدة والحمد لله.

وهذا الذي فعله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبنى عليه تلك القاعدة المباركة. كان عماده إلى جانب كل الأسباب آنفة الذكر، حسن الصلة بالله تبارك وتعالى، فالدعوة دعوته، والعمل في سبيله، والمبتغى مرضاته: [**إن لم يكن بك سخط عليَّ فلا أبالي**].

ومن أجل هذا: كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ الصورة الناطقة العملية لما يدعو إليه. فهي دعوة بالقول والتبليغ، ودعوة بحسن الأسوة وفضائل السلوك، إلى إنسانية في التوجيه، وحزم في القيادة، وترفع عن كل ما يقع به زعماء التراب والشهوة، لأنه رسول الله ومجتباه والمبين عنه سبحانه ما أراد.

ولا تسل عما أعطاه الله من قدرة على مخاطبة الناس على قدر عقولهم،

سواء أكان المخاطب فرداً أو جماعة، أو واحداً من تلك الوفود التي كانت تفد عليه، فكما أن القرآن أنزل على سبعة أحرف ووسع لهجات العرب في معهوداتها بالخطاب، كان من حكمته البالغة سبحانه: أن يكون المبين للكتاب المعجز على أهلية لهذا البيان، وتبليغ الناس على اختلاف أحوالهم وشؤونهم وظروفهم: ما به يدخل إلى النفوس ويوصل الدعوة إلى قلوبهم وعقولهم.

وهذا في كل من أكرمه الله بالهداية وشرح صدره للإسلام، أما أولئك الذين اختاروا طريق الضلالة والصدود عن الحق: فلهم شأن آخر؛ فلقد حرجت صدورهم بالخير، وعموا وصموا عن كلمة الهدى، وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون.

وليس من مكرّر القول أن نستذكر ـ ونحن نذكر إمام الدعاة وسيدهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن من أعظم ما تميز به طريقه في الدعوة، أنه كان ـ كما سبق ذكر الآية ـ يدعو ويبلغ ويربي من يدعوهم على المنهج الذي يدعوهم إليه، فلم تكن القضية بالنسبة إليه قضية تعليم مجرد للكتاب والحكمة، ولكنه التعليم الذي تنضم إليه التزكية وتربية النفوس، لتكون الاستجابة وجوداً جديداً لأمة الاستجابة حتى ترى أن معنى إبلاغ الدعوة بناء هذا الوجود.

وهكذا بني الإنسان الجديد على هذه الدعوة، فكانت الأسرة، وكان المجتمع، والدولة، وكل أولئك صورة البنية الجديدة التي أرادها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهذه الأمة.

والحمدلله الذي أرسله شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.